

المستخلص

محمود شاكر محمود .مظاهر السرد في الشعر الأندلسي (أطروحة دكتوراه) .- بغداد :
الجامعة المستنصرية : كلية الآداب :القسم اللغة العربية ، ٢٠٠٩ .

يؤكد شعر التمرد ارتباطه بقضايا العصر ومشكلات الناس، لان ثمة تفاعلاً بين الشاعر وواقعه يبرز أثره في الشعر . فالشعر ذو الاتجاه الواحد لا يستطيع ان يقدم معرفة متكاملة عن الواقع المعاش إن لم يصطرع مع الواقع ويتجادل فيه، فجدل الآراء في النهاية هو الذي يوصل الى الصورة الحقيقية، اذ ليس الشعر تسجيلاً لاجابيات الواقع فقط، لانه لا يكون شعراً ان لم يقترب من مشكلات هذا الواقع .

وعليه فمن اراد ان يتمثل الاندلس سياسياً واجتماعياً ونفسياً فليقرأ شعر التمرد، نعم لم يكن ادبهم جزلاً ولا خيالهم بارعاً ولا فكرهم عميقاً، ولكن مع ذلك كان ادباً صادقاً يمثل نفوسهم وبيئتهم خير تمثيل .

بيد اننا لا بد ان نوضح ان التمرد نتيجة لاسبب، والعصر المدروس كبير ولا يعني وجود التمرد فيه التعميم .

التمرد كما لمسناه في الشعر الأندلسي لم يكن في كل الاحوال ايجابياً ومثمراً، كما انه لم يكن على الدوام حالة سلبية مدمرة، وعليه فمن الممكن لدينا تقسيم التمرد من هذا الجانب الى ثلاث فئات:

الفئة الاولى

كان تمردنا انفصالياً عن العالم وهرباً الى عالم الرؤى والتخيلات، وأستسلاماً وتنصلاً من اي موقف ايجابي مثمر، فادى التمرد بذلك وظيفة سلبية، جعلت صاحبها يقف على هامش الحياة، فانسلخ عن المجتمع وقطع صلته بالآخرين، فعانى الوحدة والعجز عن تغيير الواقع . وبدا ذلك واضحاً في مبثي اللهو والانطواء، فقد رسم شعر الانطواء صورة عن ضعف بعض الأندلسيين في الوقوف امام الصعوبات التي خلفتها اوضاع المجتمع، فغلبوا الابتعاد عن التداني.

وبين مبثي اللهو ان اقامة معظم مجالس الانس والطرب وما حفلت به من اشعار لاهية لم تكن في حقيقتها الا تنفيساً عن كوامن اصحابها النفسية واضطراباتهم الحسية، وما حفلت به هذه المجالس من مجون وغزل بالغلمان واستهتار بالقيم الدينية لم يكن الا تمرداً على واقع مرفوض، حاولوا التعبير عنه بطريقتهم الخاصة السلبية، مما حدا بلغة الفحش والبذاءة ان تصل الى هرمها العالي في الاندلس. ويندرج تحت هذه الفئة ايضاً مبثي اجتراء المرأة الأندلسية، والتي تأثرت باوضاع بلادها السائدة من سياسية واجتماعية، مما كان له الأثر الاكبر في اجترائها واعلان تمردها. فاذا كانت المرأة هي الملهم للشاعر المشرق، فان الرجل اضحى في الاندلس هو الملهم للشاعرة الأندلسية، وبدا ذلك جلياً في غزلها وهجائها، الذي عبرت في ثناياها عن تمردها وعدم مبالاتها بعرف التقاليد وقيد الشرع، فزاوت العشق ولهجت به دون خوف أو حرج، ونطقت باشعار بالغة البذاءة والفحش في هجائها .

وهكذا كان فصل التمرد الاجتماعي سلبياً في تمردنا من خلال مباحثه الثلاث .

الفئة الثانية

اتجهت في تمردنا الى دور ايجابي بناء من خلال تبيان مساوئ مجتمعها المتحجر الفاسد في أغلبه، ورسم طريق خلاصها من خلال الكشف والتوجيه، فمحاولة الخلاص عن طريق الرفض والثورة والتصميم على التغيير يمثل موقفاً ايجابياً، لأنه أكثر قدرة على تجاوز الواقع، وتحريك الناس وإيقاظهم من غفوتهم، ورفدهم بنبض حي قوي، وهو حل اختص به الأشرار من اقوياء النفوس والإرادة، الذين اختاروا لانفسهم الوقوف في موقع المسؤولية، فكان تمرد هذه الفئة مؤثراً ويجابياً وفاعلاً، وتجلى ذلك في فصل التمرد السياسي.

فقد ذاق الأندلسيون الأمرين من ظلم السلطة الحاكمة وسوء تقديرها للأمر، هذه السلطة تمثلت بالحكام من ملوك وأمراء وولاة من جهة وفقهاء وقضاة من جهة أخرى. فضلاً عن صراعات عناصر المجتمع الأندلسي السياسية، والتي جرت بين العرب انفسهم، وبين العرب وبقيّة العناصر من مولدين ويهود: والتي حاول البعض ان يضعها في خانة الصراعات العرقية والدينية والمذهبية، لكنها لم تكن في حقيقتها غير صراعات سياسية غايتها تسلم زمام الأمور لتغيير الوضع الراهن آنذاك.

وارتفعت اصوات الشعراء لتندد بهذا الواقع السياسي المؤلم وترفضه ما استطاعت الى ذلك سبيلاً، لكن السلطة الحاكمة لم تأل جهداً في كبح جماح هذه الاصوات واسكاتهما، مما يبرر لنا سبب قلة الآثار الادبية الموجودة، والخاصة بهذا الصدد.

الفئة الثالثة

وقفت هذه الفئة على مسافة واحدة بين فنتي التمرد السلبي والايجابي، فلاهي تحسب على هذه أو تلك، ولا تتسلخ في الوقت ذاته عنهما، وتتمثل في فصل التمرد النفسي. ففي مبحث الذات والشعور بالتفرد نرى ان شعر الفخر والتباهي بالفضائل الذي تغنى به شعراء الأندلس في ظروف كالتى مر بها المجتمع الأندلسي والتي اقل ما يقال عنها انها ضعيفة، لم يكن في حقيقته الا تمرداً على واقع مرفوض، فكان بمثابة تعويض نفسي لما يشعر به الفرد الأندلسي من اختلال في توازنه نتيجة ظروف مجتمعه.

وفي مبحث القلق والشعور بالضيق بدا لنا ان موقف الأندلسيين من الموت الذي يضع حداً فاصلاً لحياتهم وخوفهم من مجيئه، وموقفهم من الدهر وتقلباته والذي اخذ صورة الحرب معه تارة والاستسلام له اخرى، يمثلان مظهرين من مظاهر التمرد النفسي الذي غذاه القلق والشك من جدوى الحياة.

فالاجابية تحسب لهذه الفئة من خلال حالة التوازن النفسي التي يريد ان يخلقها الفرد الأندلسي لذاته، والسلبية تكمن من خلال اطلاق الفرد الأندلسي العنان لخياله وقلقه وشكه دون حدود يقف عندها، وهو ما دفعنا الى افراد هذه الفئة في مرتبة وسطى بين التمرد السلبي والايجابي، لانها تتهل من كليهما.

ولا يفوتنا تبيان ان المعيار في تقسيم التمرد الى اقسام ثلاث كان الاغلبية فالتمرد السياسي كان غالبية ايجابيا مع وجود السلبية لكنها كانت قليلة لا يقاس عليها، والعكس صحيح مع التمرد الاجتماعي فغالبية كان سلبياً مع حضور الايجابية القليلة. اما التمرد النفسي فقد تساوى لدينا الطرفان: الايجاب والسلب، ولم يرجح في تصورنا أحد على الآخر.

اما ما يخص الدراسة الفنية فتبين لنا ان شعر التمرد اقل انواع الشعر احتفالاً بالناحية الفنية، فقد حرص الأندلسيون على اللفظة السلسة الواضحة والاسلوب الرشيق، فهم يؤثرون السهولة حتى في الاغراض التي تقتضي بطبيعتها القوة والرصانة كالفخر والهجاء.

فالاسلوب على العموم كان اسلوباً خفيفاً على الاسماع والالسنه،وهو اسلوب اوسع مدى واكثر انصاراً من الاسلوب الجيد المصقول الذي لم يناصره الا الخاصة في الاندلس .

وبدا ذلك جلياً في مباحث الفصل الفني،ففي مبحث المحسنات البديعية الموسيقية لم يبالغ الاندلسيون في شعر التمرد بالاخذ في فنون البديع من تكرار وجناس وطباق،لايثارهم الفكرة على ما سواها،وجاءت اغلب هذه المحسنات بطريقة مقبولة مستحسنة من غير تعمل ولا اجهاد خاطر،بسبب طبيعة المواضيع التي طرقوها،والمتلقي الذي قبلت له.

ولم يبعد مبحث الصورة الشعرية بقسميه: التشبيه والاستعارة عن سابقه،ففي قسم التشبيه مال الاندلسيون الى التشبيهات البسيطة الكاملة الاركان من مشبه ومشبه به ووجه الشبه،فضلاً عن ميلهم في رسم صورهم الى ربط الدلالة المعنوية والحسية بصور من البيئة والطبيعة الاندلسية،وهو ما له صلة بطبيعة الموضوعات التي عالجتها الدراسة،من حيث توجهها نحو المعاني والافكار دون الاحتفال بالصياغة والصناعة.

وفي القسم الاخر: الاستعارة، نجد الاندلسيين ينحون في رسم صورهم الاستعارية منحاً حسيماً،يقوم على اساس تبادل المدركات لمواقعها عن طريق تجسيد وتشخيص المعاني المجردة والاشياء الجامدة وابرازها في اطار مادي ملموس،ليسهل فهمها من قبل المتلقي. لذلك جاءت الصورة الشعرية واضحة ومفهومة،بعيدة عن الفلسفة العويصة والتراكيب المنطقية.

وفي المبحث الثالث جال الاندلسيون في ساحة الطلب واساليه،واكثروا في تناول اسلوبي الاستفهام بشقه المجازي،واغراضه التقريرية والتوبيخية،والامر بصيغة فعل الامر،لما فيهما من دلالة في توضيح المعنى وتبسيطه،وسهولة تقبله من المتلقي .

وعليه يمكننا القول بوجود اسلوب اندلسي في شعر التمرد يحمل سمات معينة في صياغة الالفاظ والجمل،تغلب عليه البساطة والسهولة،وتبدو فيه القدرة على اختيار الالفاظ الموحية المستمدة من طبيعة الخطاب وما يصبو اليه من تأثير في عامة الشعب،وهو ما حدا بالشعراء الى استخدام النتنف والمقطعات في شعرهم المتمرد،لسهولة حفظها وقوة تأثيرها فنية شعر التمرد تكمن في انتهاجهم لهذا الاسلوب.

فلقد استطاع الشاعر الاندلسي من خلال لغته البسيطة القريبة من الشعبية والتي اختارها للتعبير عن واقع حياته وعصره،ان يجعل جميع الاحداث التي عرفها عصره من سياسية واجتماعية تتقبل في سهولة ويسر لدى المتلقي،فصيحات الشاعر الاندلسي السياسية والاجتماعية والنفسية عمت جميع البلاد،وجعلت الاحساس بالمأساة امراً بارزاً من خلال تجربته الشعرية.